ثقافة

# ابن بيروت الذي هامَ بتعدّد لهجات الوطن
# نادر سراج: اللغة بصمة جينية تشكّل هوّية الإنسان

على مدى سنوات، اشتغل الاستاذ الجامعي والباحث والمترجم والكاتب نادر سراج على لهجات المناطق اللبنانية، ولغة الشارع انطلاقا من هم التوثيق لهذه اللغة، وترك آثارا للاجيال المقبلة وللباحثين المستقبليين للمراكمة عليه

الباحث الذي يعمل استاذا لمادة اللغة والفكر في العالم العربي في معهد الاداب الشرقية (جامعة القديس يوسف)، واستاذا لمادة فن التواصل في "كلية فؤاد شهاب للقيادة والاركان"، تنوعت اعماله وكتبه وانشغالاته. رأيناه يؤرخ لـ"الشباب ولغة العصر ـ دراسة لسانية اجتماعية" (2012) الذي حاز جائزة "افضل كتاب عربي لعام 2013" من "مؤسسة الفكر العربي". كما غاص في قاموس الرشوة في كتابه "خطاب الرشوة ـــ دراسة لغوية" (2010) الذي اخذه الى عواصم عربية عدة من اجل جمع القاموس اللغوي والكنايات والتوصيفات الخاصة بهذه الافة. ايضا، اخذته الثورة المصرية الى القاهرة لينكب على دراسة "مصر الثورة وشعارات شبابها... دراسة لسانية في عفوية التعبير" ، وغيرها من الكتب التي تحلل مآلات ومزاج الشارع والشباب انطلاقا من اللغة المستخدمة.

اليوم، يضع الباحث سراج نادر بين ايدينا جديده "العربية المحكية في لبنان: الفاظ وعبارات من حياة الناس" ("المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات"). في هذا العمل الضخم الذي استغرقه خمس سنوات من الجهد، يقدم الباحث حوالي 500 كلمة وعبارة ولفظ تشكل لغة الشارع اللبناني في توصيف حالاته ومزاجه وواقعه وراهنه. جمعها سراج من كتبه السابقة ومن ملاحظاته ومعايناته وقراءاته وتدويناته الخاصة في لقاءاته المتعددة على مدى سنوات، من سائق الاجرة الى الصحافي، وايضا من خلال مقابلات مع رواة لغويين. في اختصار، الكتاب سجل لغوي واجتماعي يقدم صورة راهنة عن المجتمع اللبناني. "الامن العام" كان لها لقاء مع الكاتب للحديث عن مسيرته الفكرية وكتابه الجديد.



الباحث نادر سراج.

■ كيف بدأت علاقتك باللغة؟ وكيف تنظر اليها؟

□ علاقتي باللغة واستشعاري بدلالاتها واهميتها وتنوعها بدأت في زمن مبكر جدا. انا من اهالي منطقة الباشورة. وخلال فتوتي، سكنتُ لفترة في بيت جدي في منطقة البسطة. كان بيتا لبنانيا تقليديا من طبقتين وحديقة، ومعمما بالقرميد الاحمر. في الطبقة العليا حيث سكنا، كانت هناك الدار الواسعة، وثلاثة قناطر مزججة، مع حجر رملي، وهذا ما يشكل البيت البيروتي بالتحديد. جيراننا في الطبقة الاولى كانوا من آل عطية من الجنوب، وكنا اصدقاء معهم. كان عمري ست سنوات حين سمعتُ الوالدة تنادي ابنتها "عدليت" (اي "عدلات"). ترسخ في ذهني ان الفتاة تدعى "عدليت". كبرت والتحقت بمدرسة البسطة التي كانت تضم ايضا تنوعا في اللهجات. بعدها، التحقت بدار المعلمين والمعلمات في بئر حسن، وكانت عبارة عن نموذج مصغر ضم طلابا من كل المشارب الجغرافية والدينية والمناطقية. هناك، كانت المرة الاولى التي اسمع فيها صديقا في الدار يقول: "ايش عم تحكي". بعدها، صرت افهم هذه اللهجات وصرنا نتعايش مع التمايزات اللهجية المناطقية. انا البسطاوي ابن بيروت، معروف عني اني بيروتي حتى العظم، لكنني لا اتكلم اللهجة البيروتية لانني نشأت في بيئة عائلية حيث والدي كان تاجرا قبل ان يذهب الى الاعمال العقارية، ووالدتي من اسرة متوسطة، وكانا يتحدثان بلهجة مخففة. نشأت على هذه الشاكلة. بالنسبة الي، اللهجة البيروتية ذات مخارج اصوات فاقعة بعض الشيء، مثل كل لهجات المناطق اللبنانية. في دار المعلمين، تعلمت وحافظت على لهجتي العفوية المخففة. وفي المستقبل، اكتشفت انها تسمى "لهجة بيضاء"، وصرت من المروجين لها. اذا بدا تألف اذني مع كل لهجات الوطن في بيئة منفتحة هي دار المعلمين. وصارت الحساسية اللغوية عندي تتطور شيئا فشيئا، خصوصا ان استاذين مهمين توليا تعليمي هما الاديب والاستاذ علي شلق الذي كان ملهمي الاكبر والدكتور ميشال عاصي. بعد دار المعلمين، ذهبت الى الجامعة اللبنانية حيث درست الادب العربي في الاونيسكو. هناك توسعت دائرة اهتماماتي الثقافية والدراسية. في نهاية سنتي الاخيرة، استدعاني رئيس القسم واعلمني بانه يمكنني الحصول على منحة بما اني متفوق، وقال لي انك ستذهب الى السوربون لدراسة الالسنية. كانت تلك المرة الاولى التي اسمع بهذا المصطلح. لاسباب طائفية وسياسية، طارت المنحة، لكن ظلت الكلمة في بالي. بدأت التدريس الثانوي وانشغلت بحياتي، لكن بقي الهاجس اللغوي. كنت اراقب الناس كيف يتكلمون دوما. في المرحلة الاولى، كنت اراقب واخزن الكلمات والعبارات. وفي مرحلة لاحقة، صرت احتفظ بدفتر ملاحظات وادوّن كل شيء. مثلا، في سيارة الاجرة، كنتُ اسمع السائق يقول عبارة جبلية معينة، فادونها توا. واحيانا استفسر منه ماذا تعني الكلمة. ظل الفضول اللغوي يتملكني، لكنني لم اكن اضع هذا الشغف في مكان علِمي. غامرت وبعت كل شيء، وسافرت الى بارَيس لدراسة الالسنية. هناك صادفت استاذا تونسيا مشهورا هو دافيد كوهين اوكل الي دراسة لهجة بيروت. كانت صدمة ثقافية في حياتي. انا حضرت نفسي وبعت كل شيء وذهبت الى فرنسا من اجل ماذا؟ دراسة لهجة اهل بيروت؟ في الامتحان الشفهي من السنة الاولى، سألني الاستاذ: ما الذي استفدت به في هذه السنة؟ في ذلك العام، كنا ندرس ◄

> ارفض فكرة المفاضلة والمقابلة بين الفصحى والعامية

نقطة على السطر

## لغتنا، لهجاتنا، هوّيتنا

لم يكن الشاعر الكبير سعيد عقل يترك مناسبة تمر، الا ويذكّر بان الفينيقيين حين اخترعوا الحرف، ونشروه على متن سفنهم حول العالم، كانوا يضعون اسس الحضارة الانسانية... هل يمكن اليوم ان نتخيل امة، من دون لغتها؟

لا جود لشعب الا من خلال اللغة التي تحدّد هويته. بل ان مقياس تقدم شعب من الشعوب، يكون في ثقافته ولغته وانجازاته الفكرية والقانونية عبر اللغة، وقدرته على الاشعاع، والتأثير في الحضارة الانسانية. التقدم التقني، والازدهار الاقتصادي، والانجازات العلمية، والغنى المادي على قدر كبير من الاهمية، فهي التي تحدد مجرى الرخاء والتقدم (ومعه الخراب والانهيار وياللاسف، اذا لم يكن هذا التقدم مقرونا بالاخلاق والقيم الانسانية)، لكنها - في عرف كثيرين - تأتي، في الترتيب والاهمية، بعد اللغة وكل ما تشمله وتستبطنه. لذلك نكنّي الفرنسية بلغة موليير، والاسبانية بلغة ثرفانتس، والروسية بلغة دوستويفسكي وتولستوي.

نكتب ذلك في زمن هجين، معولم، باتت تقنيات التواصل هي الطاغية، تقولب وعينا، وتحدد سلوكنا وادوات تعبيرنا. يكفي ان نراقب الادوات والمصطلحات التي يستعملها المراهقون والمراهقات في لبنان والعالم العربي، وحتى الاكبر سنّا، للتواصل عبر الرسائل النصية، ورسائل الواتساب وسائر مواقع "الدردشة" والتواصل الاجتماعي. حروف لاتينية لصياغة كلمات عربية، واشارات وارقام للدلالة على الحروف، فالهمزة هي رقم 2 مثلا، والعين هي 3، والحاء 7 وهلمّ جرّا... طبعا هي وسيلة تواصل عملية وسريعة وعصرية، ليست موضع اتهام في ذاتها. لا احد يستطيع ان يقف في وجه حركة الواقع، نستطيع التعامل معها بالطريقة الاذكى والارقى والاكثر انسجاما مع ذاتنا وهويتنا وحاجاتنا الانسانية والروحية والفكرية.

المطلوب اليوم حين نفكر في تقدم مجتمعنا، في سياق تقدم البشرية، ان نبتكر وسائل وادوات وقوانين ومناهج، لاعادة اختراع ذاتنا الجماعية، والحفاظ على جوهر هويتنا، اي لغتنا، في مواجهة غزو الحضارة المهيمنة ولغتها المفروضة قسرا، ونموذجها الاوحد. هذا يتطلب رد الاعتبار الى اللغة العربية، في الاعلام والتربية وفي التخاطب الرسمي وعلى الساحة العامة. وهذا يتطلب ايضا تحديث اللغة، وابتكار ادوات حديثة لتعليمها وتشجيع الكتابات الجديدة الخارجة على القوالب التقليدية، والتي يجد الجيل الجديد نفسه فيها. في هذا السياق تأتي جهود الباحثين في تسليط الضوء كما يفعل الدكتور نادر سراج، ضيفنا هذا العدد، على مصادر غنى هذه اللغة وروافدها وكنوزها، في تربة اللهجات والعاميات الخصبة، التي ليست ولم تكن يوما في موقع الصراع او التنافس او العداء مع اللغة الام، بل هي خزانات روحية وفكرية حية ترفد الفصحى في علاقة تنافذ وتفاعل، علاقة جدلية في الاتجاهين.

يدهش اللبناني العالم باتقانه لغات عدّة، وهذا ممتاز طبعا. شرط الا ينسلخ عن لغته الام، فيفقد جوهر ماهيته، بل عليه ان يتماهى معها في علاقة عضوية تفاعلية. عليه ان يحملها معه، في رحلته الحضارية المتواصلة، على خطى اجداده الفينيقيين...

سمير مراد

◄ لسانيات اجتماعية. اجبته بان في بيروت الحرب الاهلية، كان مسلحو الاحزاب اليمينية يوقفون البوسطات، ويصعد المسلح حاملا حبة بندورة، ويبدأ بسؤال كل راكب: ما هذه؟ الراكب الذي يجيب "بَنَدُورة"، يبقيه المسلح في البوسطة. اما ذاك الذي يقول: "بَندورَة"، فكانت تتم تصفيته. لم اكن افهم هذا الامر. لاحقا، فهمت ان اللهجة التي ينشأ عليها الانسان اقوى منه، وهو لا يستطيع ان يتهرب منها او ان يخفيها الا بقدرة قادر. تيقنت الى ان اللغة هي بصمة جينية تشكل جزءا من هوية الانسان.

■ اخبرنا عن كتابك الجديد "العربية المحكية في لبنان ـ الفاظ وعبارات من حياة الناس"؟

□ كتابي الجديد هو جزء من مشروعي الطويل النفس. احاول من خلال هذا الكتاب وكل سابقيه وحتى لاحقيه ان اطرح بكل تواضع شبه نظرية عن اهمية العنصر اللغوي اليوم في تكوين الوعي العام وفي تمكين الكائن اللغوي من رؤية العالم بمنظار اللغة. نحن لا نرى العالم الا من خلال منظارنا اللغوي الام، اي ان رؤيتنا لذواتنا، للاخر، للعالم المحيط بنا تكون من خلال مفاتيحنا اللغوية. كمشاهد ومراقب ومستمع وباحث واستاذ، دائما تجذبني هذه العبارات والكنايات والمجازات التي تملأ فضاء العالم العربي واللبناني. نعيش ونتبادل ونتنفس بالاستناد الى مجموعة من التعابير غير القاموسية. لماذا يطفو احيانا العامل البلاغي والمجازي على ذاك الحقيقي اكان في لغة سائق الاجرة او البائع المتجول او الاداري او السياسي او الاعلامي؟ لماذا نحاول ان نثير الانتباه، نحرك في المستنقع الراكد، نسلط الضوء على مسألة بعينها من خلال الالتفاف عليها كناية، او تشبيه، نلجأ الى كل ما لدينا من اسلحة بيان وبلاغة وضعتها الضاد بين ايدينا؟ وعلى ما يبدو ان الكل يحسن استخدامها من رجل الشارع والمثقف والمتعلم الى انصاف المتعلمين والاناس العاديين الذين لا يمتلكون اي ثقافة معينة. لماذا؟ لانها تطفو على سطح اللغة، يصطادها المرء يمينا ويسارا. انا اكتشفتها في حياتنا السياسية وفضائنا الاعلامي ووسائل التواصل الاجتماعي.

■ يضم الكتاب اكثر من 300 عبارة وكلمة، فكيف جمعتها؟

الكتاب.

□ في الواقع، يضم الكتاب 550 كلمة استندت في جمعها الى مخرجات كتبي السابقة، فانا اشتغلت سابقا على "خطاب الرشوة" الذي لم يجرؤ باحث عربي على الكتابة عن الموضوع. كما اشتغلت على كتاب "لغة الشباب"، وعلى "الخطاب الاحتجاجي" الذي درست فيه احتجاجات عام 2016 في لبنان، كما اشتغلت على كتاب شعارات مصر، وحراك 2019 في لبنان الذي لم يصدر بعد. كل هذه الكتب زودتني مادة معرفية واسعة، واخذت منها كل ما له علاقة بالبلاغة والشعبي. كما انني اتابع يوميا قراءة ما لا يقل عن خمس صحف لبنانية، واصطاد دوما العبارات البلاغية المستخدمة في التعبير السياسي. كذلك، اعتمد بشكل كبير جدا على مسموعاتي الشخصية ومعايناتي ولقاءاتي مع الناس، اذ اسجل دوما الكلمات على ورقة تكون في حوزتي. جمالية اللغة قدرتها على التعبير والتجدد كل يوم. ومن اهم ادوات القيادة والادارة هي امتلاك اللغة والقدرة على توليد البلاغة التي تحاكي الظرف والراهن.

■ هل في رأيك اللغة المحكية اوفى تعبيرا عن روح وشخصية شعب من الفصحى؟

□ ارفض فكرة المفاضلة والمقابلة بين الفصحى والعامية. منذ التسعينات، خضت هذه المعركة. ارفض كل تقديس واسطرة للغة، فهي حاجة انسانية، واهميتها تكمن في ان تفي باحتياجات اهلها. كل اللغات متساوية بقدر ما تعبر عن اهلها. لا يوجد لغة سماء ولغة مقدسة، كل اللغات سواسية. امر اخر هو ان المكتوب والمنطوق ذو مستويات تداولية للغة نفسها، اي ان اللغة العربية تضم الفصحى والفصحى الميسرة والعامية. مرة سألت استاذي وملهمي العلامة الشيخ الراحل عبد الله العلايلي عن هذا الامر، فاجابني بان اضع في ذهني ان الفصحى التي نطق بها ابراهيم اليازجي لم تعد الفصحى اليوم. اليوم حفيده يزن يتكلم بعامية افصح من اللغة العربية الفصحى في القرن التاسع عشر. كل شيء يتطور، واللغة تشتغل. لم تعد مقاييس العامية والفصحى كما كانت في السابق. اليوم عامية انسان الشارع والطالب والعامل والموظف ارتقت بشكل واسع لاسباب عدة من بينها التعليم والاعلام ووسائل التواصل. اذا، كتابي هو عن لغة الناس، فهم الذي يلصقون ويشذبون ويبتكرون ويركبون لايصال رسالة. حين يكتب صحافي عريق مستخدما كلمة "تسكيج"، فالقارئ المثقف وذلك العادي فهم المعنى لان المجاز هو في صلب يومياته، ولن يحتاج الى اللجوء الى القاموس لفهم معنى المفردة. زياد الرحباني اهم شخص وصل الى المبدأ من دون ان يعرف ذلك. ينطق الكلمة من الناس، ويهذبها بمعنى انه يدخلها في جملة موسيقية، ويغنيها ويمسرحها. فترتد الكلمة من جديد الى اذن السامع، الذي سمعها اصلا في الشارع، لكن ها هو يراها في حلة جديدة، على لسان فنان او ممثل مسرحي، متخذة القا جديدا ومحتوى اخر. لذلك، فهو يعاود استخدام الكلمة من جديد.

■ ما هو مشروعك المقبل؟

□ انوي انجاز كتاب عن حداثة بيروت في الثلاثينات والاربعينات. فبيروت كانت مثل باريس، بسياراتها وعماراتها الكولونيالية، والمحلات بمردات الشمس التي كان يكتب عليها اسم المحل. اريد ان اظهر كيف اتى الفرنسيون واستكملوا ما وضعه العثمانيون. من خلال ذلك، اريد ان اظهر هذا التكامل الحضاري في العاصمة. الكتاب شبه جاهز تقريبا استغرق مني سبع سنوات من العمل، لكننا ننتظر التمويل.

س. م.